الباب الثاني

الجهاد الاقتصادي :
أهم أنواع الجهاد!

الفصل الأول

الحكمة من تقديم البيان الإلهي:
الجهاد الاقتصادي على الجهاد بالنفس!!..

قد يعجب الإنسان عندما يعلم أن القرآن الكريم قد قدّم الجهاد المالي علىٰ الجهاد بالنفس ، وذلك في ثمانية مواضع متفرقة .

لكن إذا دقّق النظر وجد أن النفس مجبولة علىٰ حبّ المال ، كما في قوله تعالىٰ وهو يصف هذه الحالة الإنسانية : ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر : ٢٠] .

من هنا فخروج الإنسان عن ماله في سبيل إنفاقٍ هنا أو هناك ليس أمراً سهلاً ، إنما المسألة جدّ صعبة .

لذا لا بدّ من التوقفّ عند تفسير هذه الآيات لندرك الحكمة من تقديم القرآن الجهاد المالي علىٰ الجهاد بالنفس :

١ـ قال الله تعالىٰ : ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ٩٥ـ٩٦] .

. . . إن هذا النصّ القرآني كان يواجه حالة خاصة في المجتمع المسلم

وما حوله ، وكان يعالج حالة خاصة في هذا المجتمع من التراخي ـ من بعض عناصره ـ في النهوض بتكاليف الجهاد بالأموال والأنفس ، سواء كان المقصود أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة احتفاظاً بأموالهم ، إذ لم يكن المشركون يسمحون لمهاجر أن يحمل معه شيئاً من ماله ، أو توفيراً لعناء الهجرة وما فيها من مخاطر ، إذ لم يكن المشركون يتركون المسلمين يهاجرون ، وكثيراً ما كانوا يحبسونهم ويؤذونهم ـ أو يزيدون في إيذائهم بتعبير أدق ـ إذا عرفوا منهم نية الهجرة ، سواء كان المقصود هم أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة ـ وهو ما نرجّحه ـ أو كان المقصود بعض المسلمين في دار الإسلام ، الذين لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس ـ من غير المنافقين المبطئين الذي ورد ذكرهم في درس سابق ـ أو كان المقصود هؤلاء وهؤلاء ممن لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس في دار الحرب ودار الإسلام سواء .

إن هذا النص كان يواجه هذه الحالة الخاصة ، ولكن التعبير القرآني يقرر قاعدة عامة ، يطلقها من قيود الزمان ، وملابسات البيئة ، ويجعلها هي القاعدة التي ينظر الله بها إلىٰ المؤمنين في كل زمان وفي كل مكان ـ قاعدة عدم الاستواء بين القاعدين عن الجهاد بالأموال والأنفس ـ غير أولي الضرر الذين يقعدهم العجز عن الجهاد بالنفس ، أو يقعدهم الفقر والعجز عن الجهاد بالنفس والمال ـ عدم الاستواء بين هؤلاء القاعدين والآخرين الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم ، قاعدة عامة علىٰ الإطلاق :

﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ ولا يتركها هكذا مبهمة ، بل يوضحها ويقررها ، ويبين طبيعة عدم الاستواء بين الفريقين : ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ وهذه الدرجة يمثلها رسول الله ﷺ في مقامهم في الجنة .

في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « من رمىٰ بسهم فله أجره درجة » فقال رجل : يا رسول الله : وما الدرجة؟ فقال : « أما إنها ليست بعتبة أمك ، ما بين الدرجتين مئة عام » .

وهذه المسافات التي يمثل بها رسول الله ﷺ ، نحسب أننا اليوم أقدر علىٰ تصوّرها ، بعد الذي عرفناه من بعض أبعاد الكون ، حتىٰ إن الضوء ليصل من نجم إلىٰ كوكب في مئات السنين الضوئية!

وقد كان الذين يسمعون رسول الله ﷺ يصدِّقونه بما يقول ، ولكننا ـ كما قلت ـ ربما كنا أقدر ـ فوق الإيمان ـ علىٰ تصوّر هذه الأبعاد بما عرفناه من بعض أبعاد الكون العجيب!

ثم يعود السياق بعد تقرير هذا الفارق في المستوىٰ بين القاعدين من المؤمنين ـ غير أولي الضرر ـ والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم ، فيقرر أن الله وعد جميعهم الحسنىٰ : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ .

فللإيمان وزنه وقيمته علىٰ كل حال ، مع تفاضل أهله في الدرجات وفق تفاضلهم في النهوض بتكاليف الإيمان ، فيما يتعلق بالجهاد بالأموال والأنفس ، وهذا الاستدراك هو الذي نفهم منه أن هؤلاء القاعدين ليسوا هم المنافقين المبطئين ، إنما هم طائفة أخرىٰ صالحة في الصف المسلم ومخلصة ، ولكنها قصرت في هذا الجانب ، والقرآن يستحثها لتلافي التقصير ، والخير مرجو فيها ، والأصل قائم في أن تستجيب .

فإذا انتهىٰ من هذا الاستدراك عاد لتقرير القاعدة الأولىٰ ، مؤكداً لها ، متوسعاً في عرضها ، ممعناً في الترغيب فيما وراءها من أجر عظيم :

﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

وهذا التوكيد ، وهذه الوعود ، وهذا التمجيد للمجاهدين ، والتفضيل علىٰ القاعدين ، والتلويح بكل ما تهفو له نفس المؤمن من درجات الأجر العظيم ، ومن مغفرة الله ورحمته للذنوب والتقصير ، هذا كله يشي بحقيقتين هامتين :

الحقيقة الأولىٰ : هي أن النصوص كانت تواجه حالات قائمة في الجماعة المسلمة كما أسلفنا وتعالجها ، وهذا كفيل بأن يجعلنا أكثر إدراكاً لطبيعة النفس البشرية ، ولطبيعة الجماعات البشرية ، وأنها مهما بلغت في مجموعها من التفوق في الإيمان والتربية فهي دائماً في حاجة إلىٰ علاج ما يطرأ عليها من الضعف والحرص والشح والتقصير في مواجهة التكاليف ، وبخاصة تكاليف الجهاد بالأموال والأنفس ، مع خلوص النفس لله ، وفي سبيل الله ، وظهور هذه الخصائص البشرية ـ من الضعف والحرص والشح والتقصير ـ لا يدعو لليأس من النفس أو الجماعة ، ولا إلىٰ نفض اليد منها ، وازدرائها ، طالما أن عناصر الإخلاص والجد والتعلق بالصف والرغبة في التعامل مع الله موفورة فيها ، ولكن ليس معنىٰ هذا هو إقرار النفس أو الجماعة علىٰ ما بدا منها من الضعف والحرص والشح والتقصير ، والهتاف لها بالانبطاح في السفح ، باعتبار أن هذا كله جزء من (واقعها)!

بل لا بد لها من الهتاف لتنهض من السفح والحداء لتسير في المرتقىٰ الصاعد ، إلىٰ القمة السامقة ، بكل ألوان الهتاف والحداد ، كما نرىٰ هنا في المنهج الرباني الحكيم .

والحقيقة الثانية : هي قيمة الجهاد بالأموال والأنفس في ميزان الله

واعتبارات هذا الدين وأصالة هذا العنصر في طبيعة هذه العقيدة وهذا النظام ، لما يعلمه الله سبحانه من طبيعة الطريق ، وطبيعة البشر ، وطبيعة المعسكرات المعادية للإسلام في كل حين .

إن (الجهاد) ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة ، إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة!

وليست المسألة ـ كما توهم بعض المخلصين ـ أن الإسلام نشأ في عصر الإمبراطوريات ، فاندس في تصورات أهله ـ اقتباساً مما حولهم ـ أنه لا بد لهم من قوة قاهرة لحفظ التوازن! وهذه المقررات تشهد ـ علىٰ الأقل ـ بقلة ملابسة طبيعة الإسلام الأصلية لنفوس هؤلاء القائلين بهذه التكهنات والظنون .

لو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة ما استغرق كل هذه الفصول من صلب كتاب الله ، في مثل هذا الأسلوب! ولما استغرق كل هذه الفصول من سنة رسول الله ﷺ وفي مثل هذا الأسلوب .

لو كان الجهاد ملابسة طارئة ما قال رسول الله تلك الكلمة الشاملة لكل مسلم إلىٰ قيام الساعة : « من مات ولم يغز ولم يحدِّث نفسه بغزو مات علىٰ شعبة من نفاق » .

ولئن كان ﷺ ردّ في حالات فردية بعض المجاهدين ، لظروف عائلية لهم خاصة ، كالذي جاء في الصحيح أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أجاهد ، قال : « لك أبوان؟ » قال : نعم قال : « ففيهما جاهد » .

لئن كان ذلك فإنما هي حالة فردية لا تَنْقُضُ القاعدة العامة ، وفرد واحد لا ينقص المجاهدين الكثيرين ، ولعله ﷺ علىٰ عادته في معرفة كل ظروف جنوده فرداً فرداً ، كان يعلم من حال هذا الرجل وأبويه ، ما جعله يوجهه هذا التوجيه .

فلا يقولن أحد ـ بسبب ذلك ـ إنما كان الجهاد ملابسة طارئة بسبب ظروف ، وقد تغيرت هذه الظروف!

وليس ذلك لأن الإسلام يحبّ أن يشهر سيفه ويمشي به في الطريق يقطع به الرؤوس! ولكن لأن واقع الناس وطبيعة طريق الدعوة تلزمه أن يمسك بهذا السيف ويأخذ حذره في كل حين!

إن الله سبحانه وتعالىٰ ـ يعلم أن هذا أمر تكرهه الملوك! ويعلم أن لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه ، لأنه طريق غير طريقهم ، ومنهج غير منهجهم ، ليس بالأمس فقط ، ولكن اليوم وغداً ، وفي كل أرض ، وفي كل جيل!

وإن الله ـ سبحانه ـ يعلم أن الشر متبجح ، ولا يمكن أن يكون منصفاً ، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو ـ مهما يسلك هذا الخير من طريق سلمية موادعة! ـ فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة علىٰ الشر ، ومجرد وجود الحق يحمل الخطر علىٰ الباطل ، ولا بد أن يجنح الشر إلىٰ العدوان ، ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة!

هذه جبلة! وليست ملابسة وقتية .

هذه فطرة! وليست حالة طارئة .

ومن ثم لا بد من الجهاد ، لا بد منه في كل صورة ، ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير ، ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود ، ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح ، ولا بد من لقاء الباطل المفترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة ، وإلا كان الأمر انتحاراً ، أو كان هزلاً لا يليق بالمؤمنين!

ولا بد من بذل الأموال والأنفس ، كما طلب الله من المؤمنين ، وكما

اشترىٰ منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فأما أن يقدر لهم الغلب ، أو يقدر لهم الاستشهاد ، فذلك شأنه ـ سبحانه ـ وذلك قَدَرُه المصحوب بحكمته ، أما هم فلهم إحدىٰ الحسنين عند ربهم ، والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل ، والشهداء وحدهم هم الذين يستشهدون ، وهناك نقط ارتكازية أصيلة في هذه العقيدة ، وفي منهجها الواقعي ، وفي خط سيرها المرسوم ، وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية ، التي لا علاقة لها بتغير الظروف ، وهذه النقط لا يجوز أن تتميّع في حسّ المؤمنين ـ تحت أي ظرف من الظروف ـ ومن هذه النقط الجهاد الذي يتحدث عنه الله سبحانه هذا الحديث ، الجهاد في سبيل الله وحده ، وتحت رايته وحدها ، وهذا هو الجهاد الذي يسمىٰ من يقتلون فيه (شهداء) ويتلقاهم الملأ الأعلىٰ بالتكريم[1] .

* * *

٢ـ وفي سورة التوبة :

هناك تأكيد ـ وعبر عدة آيات ـ علىٰ فكرة تقديم الجهاد بالمال علىٰ الجهاد بالنفس ، من ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٩ـ٢٢] .

وبعد غزوة تبوك أنزل الله تعالىٰ قوله ـ وفي هذا تأكيد علىٰ تفضيل

---

(١) في ظلال القرآن ، سيّد قطب : ٢/ ٧٤١ـ٧٤٣ .

الجهاد بالمال علىٰ الجهاد بالنفس ـ : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٤٠ـ٤١] .

. . . ويضرب الله لهم المثل من الواقع التاريخي الذي يعلمونه ، علىٰ نصرة الله لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء ، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء :

ذلك حين ضاقت قريش بمحمد ﷺ ذرعاً ، كما تضيق القوة الغاشمة دائماً بكلمة الحق ، لا تملك لها دفعاً ، ولا تطيق عليها جبراً ، فائتمرت به ، وقررت أن تتخلص منه ، فأطلعه الله علىٰ ما ائتمرت ، وأوحىٰ إليه بالخروج ، فخرج وحيداً إلا مع صاحبه الصدّيق ، لا جيش ولا عدة ، وأعداؤه كثر ، وقوتهم إلىٰ قوته ظاهرة ، والسياق يرسم مشهد الرسول ﷺ وصاحبه .

﴿ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ والقوم علىٰ إثرهما يتعقبون ، والصدّيق رضي الله عنه يجزع ـ لا علىٰ نفسه ولكن علىٰ صاحبه ـ أن يطلعوا عليهما فيخلصوا إلىٰ صاحبه الحبيب ، يقول له : لو أن أحدهم نظر إلىٰ قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، والرسول ﷺ قد أنزل الله سكينته علىٰ قلبه ، يهدِّىء من روعه ويُطَمْئِنَ قلبه فيقول له : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ » .

ثم ماذا كانت العاقبة ، والقوة المادية كلها في جانب ، والرسول ﷺ مع صاحبه منها مجرد؟ كان النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها

الناس ، وكانت الهزيمة والذل والصغار للذين كفروا : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ وظلت كلمة الله في مكانها العالي منتصرة قوية نافذة : ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ وقد قرىء ﴿وكلمة الله﴾ بالنصب ، ولكن القراءة بالرفع أقوىٰ في المعنىٰ ، لأنها تعطي معنىٰ التقرير ، فكلمة الله هي العليا طبيعة وأصلاً ، دون تصيير متعلق بحادثة معينة ، والله ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يذل أولياءه ﴿حَكِيمٌ﴾ يقدر النصر في حينه لمن يستحقه .

ذلك مثل علىٰ نصرة الله لرسوله ولكلمته ، والله قادر علىٰ أن يعيده علىٰ أيدي قوم آخرين غير الذين يتثاقلون ويتباطؤون ، وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجة بعد قول الله إلىٰ دليل!

وفي ظلال هذا المثل الواقع المؤثر يدعوهم إلىٰ النفرة العامة ، لا يعوقهم معوق ، ولا يقعد بهم طارىء ، إن كانوا يريدون لأنفسهم الخير في هذه الأرض وفي الدار الآخرة : ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

انفروا في كل حال ، وجاهدوا بالنفوس والأموال ، ولا تتلمسوا الحجج والمعاذير ، ولا تخضعوا للعوائق والتعلات .

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وأدرك المؤمنون المخلصون هذا الخير ، فنفروا والعوائق في طريقهم ، والأعذار حاضرة لو أرادوا التمسك بالأعذار ، ففتح الله عليهم القلوب والأرضين ، وأعز بهم كلمة الله ، وأعزهم بكلمة الله ، وحقق علىٰ أيديهم ما يُعَدُّ خارقة في تاريخ الفتوح .

قرأ أبو طلحة رضي الله عنه سورة براءة فأتىٰ علىٰ هذه الآية فقال : أرىٰ ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً ، جهزوني يا بني ، فقال بنوه :

يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتىٰ مات ، ومع أبي بكر حتىٰ مات ، ومع عمر حتىٰ مات ، فنحن نغزو عنك ، فأبىٰ فركب البحر فمات ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام ، فلم يتغير ، فدفنوه بها .

وروىٰ ابن جرير بإسناده عن أبي راشد الحبراني قال : وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالساً علىٰ تابوت من توابيت الصيارفة ، وقد فضل عنه من عظمه ، يريد الغزو ، فقلت له : قد أعذر الله إليك ، فقال : أتت علينا سورة البعوث ، ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ .

وروىٰ كذلك بإسناده عن حبان بن زيد الشرعبي قال : نفرنا مع صفوان بن عمرو ، وكان والياً علىٰ حمص قبل الأفسوس إلىٰ الجراجمة فلقيت شيخاً كبيراً هِمّاً ، قد سقط حاجباه علىٰ عينيه من أهل دمشق علىٰ راحلته فيمن أغار ، فأقبلت إليه فقلت : يا عم لقد أعذر الله إليك ، قال : فرفع حاجبيه فقال : يا بن أخي استنفرنا الله ، خفافاً وثقالاً ، ألا إنه من يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده فيبقيه ، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله عز وجل .

وبمثل هذا الجد في أخذ كلمات الله انطلق الإسلام في الأرض ، يُخْرِجُ الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وحده ، وتمت تلك الخارقة في تلك الفتوح التحريرية الفريدة[1] .

. . . . وبعد عدة آيات :

يأتي الحديث عن بعض المنافقين الذين قاموا بدور تثبيط الهمم ونحو ذلك .

---

(١) في ظلال القرآن : ٣/ ١٦٥٥ـ١٦٥٧ .

ومن خلال ذلك جاء الحديث عن الجهاد المالي وبعده الجهاد بالنفس ، قال الله تعالىٰ : ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٤٢-٤٤] .

. . . لو كان الأمر أمراً عرضاً قريباً من أعراض هذه الأرض ، وأمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك!

ولكنها الشقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة ، ولكنه الجهد الخطر الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب المنخورة ، ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة .

وإنه لنموذج مكرر في البشرية ذلك الذي ترسمه تلك الكلمات الخالدة : ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ﴾ .

فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلىٰ الآفاق الكريمة ، كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب ويميلون إلىٰ عرض تافه أو مطلب رخيص ، كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان ومكان ، فما هي قلة عارضة ، إنما هي النموذج المكرور ، وإنهم ليعيشون علىٰ حاشية الحياة ، وإن خيّل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب ، واجتنبوا أداء الثمن الغالي ، فالثمن القليل لا يشتري سوىٰ التافه الرخيص!

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ .

فهو الكذب المصاحب للضعف أبداً ، وما يكذب إلا الضعفاء ، أجل ما يكذب إلا ضعيف ولو بدا في صورة الأقوياء الجبارين في بعض الأحايين ، فالقوي يواجه والضعيف يداور ، وما تتخلف هذه القاعدة في موقف من المواقف ولا في يوم من الأيام .

﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ بهذا الحلف وبهذا الكذب ، الذي يخيل إليهم أنه سبيل النجاة عند الناس ، والله يعلم الحق ، ويكشفه للناس ، فيهلك الكاذب في الدنيا بكذبه ، ويهلك في الآخرة يوم لا يجدي النكران ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ .

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ .

إنه لطف الله برسوله ، فهو يعجل له بالعفو قبل العتاب ، فلقد تدارىٰ المتخلفون خلف إذن الرسول ﷺ لهم بالقعود حين قدّموا له المعاذير ، وقبل أن ينكشف صدقهم من كذبهم في هذه المعاذير ، وكانوا سيتخلفون عن الركب حتىٰ ولو لم يأذن لهم ، فعندئذ تتكشف حقيقتهم ، ويسقط عنهم ثوب النفاق ، ويظهرون للناس علىٰ طبيعتهم ، ولا يتوارون خلف إذن الرسول .

وإذا لم يكن ذلك فإن القرآن يتولىٰ كشفهم ، ويقرر القواعد التي يمتاز بها المؤمنون والمنافقون .

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ .

وهذه هي القاعدة التي لا تخطىء ، فالذين يؤمنون بالله ، ويعتقدون بيوم الجزاء ، لا ينتظرون أن يؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد ،

ولا يتلكؤون في تلبية داعي النفرة في سبيل الله بالأموال والأرواح ، بل يسارعون إليها خفافاً وثقالاً كما أمرهم الله ، طاعة لأمره ، ويقيناً بلقائه ، وثقة بجزائه ، وابتغاء لرضاه ، وإنهم ليتطوعون تطوعاً فلا يحتاجون إلىٰ من يستحثهم ، فضلاً عن الإذن لهم ، إنما يستأذن أولئك الذي خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكؤون ويتلمسون المعاذير ، لعل عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها ، وهم يرتابون فيها ويترددون .

إن الطريق إلىٰ الله واضحة مستقيمة ، فما يتردد ويتلكأ إلا الذي لا يعرف الطريق ، أو الذي يعرفها ويتنكبها اتقاء لمتاعب الطريق!

ولقد كان أولئك المتخلفون ذوي قدرة علىٰ الخروج ، لديهم وسائله ، وعندهم عدته[1] :

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ [التوبة : ٤٦] .

وبعد عدّة آيات :

يأتي الحديث التفصيلي عن المنافقين المتخاذلين في غزوة تبوك ، ويظهر في السرد القصصي القرآني مسألة تقديم الجهاد المالي علىٰ الجهاد بالنفس .

قال الله تعالىٰ : ﴿ . . . . فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة : ٨١ـ٨٢] .

---

(١) في ظلال القرآن : ٣/ ١٦٦٢ـ١٦٦٤ .

هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض ، ثقلة الحرص علىٰ الراحة والشح بالنفقة ، وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة ، وخواء القلب من الإيمان ، هؤلاء المخلفون ـ والتعبير يلقي ظل الإهمال كما لو كانوا متاعاً يخلف أو هملاً يترك ـ فرحوا بالسلامة والراحة ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد ، وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال! ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ وهي قولة المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال .

إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة ، وطراوة الإرادة ، وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب ، وينفرون من الجهد ، ويؤثرون الراحة الرخيصة علىٰ الكدح الكريم ، ويفضلون السلامة الذليلة علىٰ الخطر العزيز ، وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات ، ولكن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك ؛ لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان ، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال .

والنص يردّ عليهم بالتهكم المنطوي علىٰ الحقيقة :

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ .

فإن كانوا يشفقون من حرّ الأرض ، ويؤثرون الراحة المسترخية في الظلال ، فكيف بهم في حرّ جهنم وهي أشد حراً ، وأطول أمداً؟

وإنها لسخرية مريرة ، ولكنها كذلك حقيقة ، فإما كفاح في سبيل الله فترة محدودة في حر الأرض ، وإما انطراح في جهنم لا يعلم مداه إلا الله[1] .

---

(١) في ظلال القرآن : ٣/ ١٦٨١ـ١٦٨٢ .

ثم يأتي البيان الإلهي بمقارنة رائعة :

مقارنة بين المنافقين المتخاذلين ، وبين الرسول ﷺ والمؤمنين المجاهدين ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٨٦ـ٨٩] .

إنهما طبيعتان ، طبيعة النفاق والضعف والاستخذاء ، وطبيعة الإيمان والقوة والبلاء ، وإنهما خطتان ، خطة الالتواء والتخلف والرضا بالدون ، وخطة الاستقامة والبذل والكرامة .

فإذا أنزلت سورة تأمر بالجهاد جاء أولو الطَّوْل ، الذين يملكون وسائل الجهاد والبذل ، جاؤوا لا ليتقدموا الصفوف كما تقتضيهم المقدرة التي وهبها الله لهم ، وشكر النعمة التي أعطاها الله إياهم ، ولكن ليتخاذلوا ويعتذروا ويطلبوا أن يقعدوا مع النساء لا يذودون عن حرمة ولا يدفعون عن سكن ، دون أن يستشعروا ما في هذه القعدة الذليلة من صَغار وهوان ، ما دام فيها السلامة ، وطلاب السلامة لا يحسون العار ، فالسلامة هدف الراضين بالدون :

﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ولو كانوا يفقهون لأدركوا ما في الجهاد من قوة وكرامة وبقاء كريم ، وما في التخلف من ضعف ومهانة وفناء ذميم .

إن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة ، وإن ضريبة الذل لأفدح في كثير من الأحايين ، وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيّل إليها أن للكرامة

ضريبة باهظة لا تطاق ، فتختار الذل والمهانة هرباً من هذه التكاليف الثقال ، فتعيش عيشة تافهة رخيصة ، مفزعة قلقة ، تخاف من ظلها ، وتفرق من صداها ، يحسبون كل صيحة عليهم ، ولتجدنهم أحرص الناس علىٰ حياة ، هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة ، إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة ، يؤدونها من نفوسهم ، ويؤدونها من أقدارهم ، ويؤدونها من سمعتهم ، ويؤدونها من اطمئنانهم ، وكثيراً ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون!

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ وهم طراز آخر غير ذلك الطراز ﴿ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ ﴾ فنهضوا بتكاليف العقيدة ، وأدوا واجب الإيمان ، وعملوا للعزة التي لا تنال بالقعود ، ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ ﴾ خيرات الدنيا والآخرة ، في الدنيا لهم العزة ولهم الكرامة ولهم المغنم ولهم الكلمة العالية ، وفي الآخرة لهم الجزاء الأوفىٰ ، ولهم رضوان الله الكريم[1] .

* * *

٣ـ وفي سورة الحجرات :

تقديم الجهاد المالي علىٰ الجهاد بالنفس ، وذلك في قول الله عز وجل : ﴿ . . . ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٤ـ١٥] .

---

(١) في ظلال القرآن : ٣/ ١٦٨٥ .

. . . ثم بيّن للأعراب حقيقة الإيمان :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ .

فالإيمان تصديق القلب بالله ورسوله ، التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب ، التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب ، ولا تهجس فيه الهواجس ، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور ، والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله ، فالقلب متىٰ تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه ، لا بد مندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب ، في واقع الحياة ، في دنيا الناس ، يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان ، وما يحيط في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة ، ولا يطيق الصبر علىٰ المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة ، ومن هنا هذا الانطلاق إلىٰ الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن ، يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه ، ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس ، والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوّره الإيماني وواقعه العملي ، وعدم استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيماني الكامل الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن المنحرف ، فلا بد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله ، حتىٰ تنثني هذه الجاهلية إلىٰ التصور الإيماني والحياة الإيمانية .

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ .

الصادقون في عقيدتهم ، الصادقون حين يقولون : إنهم مؤمنون ، فإذا لم تتحقق تلك المشاعر في القلب ، ولم تتحقق آثارها في واقع

الحياة ، فالإيمان لا يتحقق ، والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون .

ونقف قليلاً أمام هذا الاحتراس المعترض في الآية : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ .

إنه ليس مجرد عبارة ، إنما هو لمس لتجربة شعورية واقعية ، وعلاج حالة تقوم في النفس ، حتىٰ بعد إيمانها ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ وشبيه بهذا الاحتراس في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ [الأحقاف : ١٣] .

فعدم الارتياب ، والاستقامة علىٰ قوله : ربنا الله ، تشير إلىٰ ما قد يعتور النفس المؤمنة ـ تحت تأثير التجارب القاسية والابتلاءات الشديدة ـ من ارتياب ومن اضطراب ، وإن النفس المؤمنة لتصطدم في الحياة بشدائد تزلزل ، ونوازل تزعزع ، والتي تثبت فلا تضطرب ، وتثق فلا ترتاب ، وتظل مستقيمة موصولة هي التي تستحق هذه الدرجة عند الله .

والتعبير علىٰ هذا النحو ينبّه القلوب المؤمنة إلىٰ مزالق الطريق ، وأخطارالرحلة ، لتعزم أمرها ، وتحتسب وتستقيم ، ولا ترتاب عندما يدلهم الأفق ، ويظلم الجو ، وتناوحها العواصف والرياح![1] .

* * *

٤ـ وفي سورة الصف :

لفتة رائعة إلىٰ أربح تجارة ، وهي المجاهدة بالمال والنفس ، وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ

---

(١) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٣٤٩ـ ٣٣٥٠ .

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف : ١٠-١٣] .

وفي ظلال العقيدة ، وفي مواجهة وعد الله بالتمكين لهذا الدين الأخير ، يهتف القرآن الكريم بالذين آمنوا ، من كان يواجه ذلك الخطاب ومن يأتي بعدهم من المؤمنين إلىٰ يوم الدين ، يهتف بهم إلىٰ أربح تجارة في الدنيا والآخرة ، تجارة الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله .

وصيغة التعبير بما فيها من فصل ووصل ، واستفهام وجواب ، وتقديم وتأخير ، صيغة ظاهر فيها القصد إلىٰ إقرار هذا الهتاف في القلوب بكل وسائل التأثير التعبيرية .

يبدأ بالنداء باسم الإيمان : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يليه الاستفهام الموحي ، فالله سبحانه هو الذي يسألهم ويشوّقهم إلىٰ الجواب : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .

ومن ذا الذي لا يشتاق لأن يدلّه الله علىٰ هذه التجارة؟ وهنا تنتهي هذه الآية ، وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق ، ثم يجيء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع : ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهم مؤمنون بالله ورسوله ، فتشرق قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم!

﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ وهو الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة ، يجيء في هذا الأسلوب ، ويكرر هذا التكرار ، ويساق في هذا السياق ، فقد علم الله أن النفس البشرية في حاجة إلىٰ هذا التكرار ، وهذا التنويع ، وهذه الموحيات ، لتنهض بهذا التكليف الشاق ، الضروري ؛ الذي لا مفر منه لإقامة هذا المنهج وحراسته في الأرض .

ثم يعقّب علىٰ عرض هذه التجارة التي دلّهم عليها بالتحسين والتزيين : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فعلم الحقيقة يقود من يعلم ذلك الخير الأكيد ، ثم يفصل هذا الخير في آية تالية مستقلة ؛ لأن التفصيل بعد الإجمال يشوّق القلب إليه ، ويقره في الحس ويمكن له : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ وهذه وحدها تكفي ، فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلىٰ شيء؟ أو يدّخر في سبيلها شيئاً؟

ولكن فضل الله ليس له حدود : ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة - حتىٰ حين يفقد هذه الحياة كلها - ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم ، وحقاً ﴿ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الرابحة ، وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة ، فالذي يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق ، فكيف بمن يتجر في أيام قليلة معدودة في هذه الأرض ، ومتاع محدود في هذه الحياة الدنيا ، فيكسب به خلوداً لا يعلم له نهاية إلا ما شاء الله ، ومتاعاً غير مقطوع ولا ممنوع؟

لقد تمّت المبايعة علىٰ هذه الصفقة بين رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه ليلة العقبة ، قال لرسول الله : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال صلوات الله عليه : « أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » .

قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك؟

قال : « الجنة » .

قالوا : ربح البيع ، ولا نقيل ولا نستقيل!

ولكن فضل الله عظيم ، وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض ، يناسب تركيبها البشري المحدود ، وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض ، وتحقيق منهجه وهيمنته علىٰ الحياة في ذلك الجيل : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ .

وهنا تبلغ الصفقة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا الله ، الله الذي لا تنفد خزائنه ، والذي لا مُمْسِك لرحمته ، فهي المغفرة والجنات والمساكن الطيبة والنعيم المقيم في الآخرة ، وفوقها ، فوق البيعة الرابحة والصفقة الكاسبة النصر والفتح القريب ، فمن الذي يدلّه الله علىٰ هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يحيد؟!

وهنا يعنّ للنفس خاطر أمام هذا الترغيب والتحبيب ، إن المؤمن الذي يدرك حقيقة التصور الإيماني للكون والحياة ، ويعيش بقلبه في هذا التصوّر ، ويطلع علىٰ آفاقه وآماده ، ثم ينظر للحياة بغير إيمان ، في حدودها الضيقة الصغيرة ، وفي مستوياتها الهابطة الواطية ، وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة ، هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان ، ولا يتردد لحظة واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الوسيع الرفيع في عالم الواقع ، ليعيش فيه ، وليرىٰ الناس من حوله يعيشون فيه كذلك ، ولعله لا يطلب علىٰ جهاده هذا أجراً خارجاً عن ذاته ، فهو ذاته أجر ، هذا الجهاد ، وما يسكبه في القلب من رضا وارتياح . ثم إنه لا يطيق أن يعيش في عالم بلا إيمان ، ولا يطيق أن يقعد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان ، فهو مدفوع دفعاً إلىٰ الجهاد ، كائناً مصيره فيه ما يكون[1] .

---

(١) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٥٥٩ـ٣٥٦٠ .

إذاً : هناك حكم كثيرة من تقديم البيان الإلهي الجهاد المالي علىٰ الجهاد بالنفس ، ضمن هذه الآيات التي ذكرناها ، ولا فرق بين الجهاد المالي والجهاد بالنفس!

ذلك لأن التنازل عن المال في سبيل أمرٍ لا يراه الإنسان ولا يلمسه ، وهو الثواب والجنان وما إلىٰ هنالك ، هذا التنازل لا يكون إلا إذا ملك الإنسان عقيدة راسخة واستعداداً للتضحية . . . . وعدم اهتمامٍ بأمور الدنيا ونحو ذلك .

وهذه الدرجة لا يبلغها إلا المقرّبون ، الذين روّضوا أنفسهم علىٰ الانقياد لما جاء في القرآن والسنّة . . . .

* * *

الفصل الثاني

هل الجهاد الاقتصادي فرض؟..

في القرآن إشارات واضحة ، إذا توقّف الإنسان عندها ، وفتش في مضامينها وجد دلالات عظيمة ، مثال ذلك قوله تعالىٰ في صدد الحديث عن الجهاد بأنواعه ، ومنها الجهاد المالي : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

فالله تعالىٰ قد فرض علىٰ المسلمين إعداد كل ما تتطلبه مواجهة الأعداء ، سواءً كان ذلك أسلحة متطورة ، أو بناء مصانع حديثة ، أو اتباع سياسة صناعية تحقق الاكتفاء الذاتي ، وإلىٰ ما هنالك .

وهذا كله يتطلّب مبالغ طائلة . . . وبالتالي فهذا هو الجهاد المالي حقاً ، وإلا فالقضية كما قررت الشريعة الإسلامية : إذا تقاعس أفراد المجتمع المسلم عن تصنيع أي نوعٍ من أنواع الأسلحة التي يحتاجها الأفراد ، ولجؤوا إلىٰ الآخرين ـ وخاصة الأعداء ـ لشراء الأسلحة ، معنىٰ هذا أنهم خالفوا التعاليم السماوية ودخلوا تحت التهديدات القرآنية .

وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء : ١٤١] .

أما معاني آية سورة الأنفال ، فننقل كلام المرحوم الشيخ محمد متولي الشعراوي ، فهو كلام يُغني عن المطوّلات و . . . :

. . . وقوله تعالىٰ : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ يعني أن يكون الإعداد لكل من تحدث عنهم ، وهم الذين قاتلوا وقتلوا وأصاب أهلهم ضرورة الثأر لمقتلهم ، والذين أسروا ، والذين نقضوا العهد نقضاً أكيداً أو نقضاً محتملاً ، كل هؤلاء لا بدّ أن تعدّ لهم ما جاء به قول الحق تبارك وتعالىٰ : ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ .

وهذا تكليف من الله تعالىٰ لعباده المؤمنين الذين يجاهدون لإعلاء كلمته بضرورة أن يعدوا دائماً قدر إمكانهم ما استطاعوا من قوة .

ولماذا قدر استطاعتهم؟

لأن الإنسان محدود بطاقة ، ووراء قدرة المؤمنين قدرة الله سبحانه ، ولذلك أنت تعدّ قدر ما تستطيع ثم تطلب من الله أن يعينك ، وإذا ما صنعت قدر استطاعتك ، إياك أن تقول : إن هذه الاستطاعة لن توصلني إلىٰ مواجهة ما يملكه خصمي من معدات يمكن أن يهاجمني بها ، فخصمك ليس له مدد من السماء إنما أنت لك المدد السماوي ، وما دام لك هذا المدد فقوتك بمدد الله تجعلك الأقوىٰ مهما كان عدوك ، ولذلك عندما يحدث الله تعالىٰ المؤمنين يوضح لهم : إياكم أن تخافوا من كثرة عدد عدوكم ، والمطلوب منكم أن تعدوا له ما استطعتم من قوة وحتىٰ أطمئنكم أني معكم ، تذكروا آية واحدة أنزلتها ، وهي : ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران : ١٥١] .

وساعة يلقي الله عز وجل في قلوب الذين كفروا الرعب سيلقون سلاحهم ويفرّون من ميدان القتال ولو كانوا يحاربون بأقوىٰ الأسلحة ، وسيتمكن المؤمنون منهم وينتصرون عليهم بأيّ قوة أعدوها .

وقوله تعالىٰ : ﴿ مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ .

هذه القوة قد تكون ذاتية في النفس بحيث لا تخاف شيئاً ، فجسم كل مقاتل قويّ ممتلىء بالصحة ، وله عقل يعمل باقتدار وإقبال علىٰ القتال في شجاعة .

بالإضافة إلىٰ قوة السلاح بأن يكون سلاحاً حديثاً متطوراً بعيد المدىٰ ، وأن يحرص المؤمنون علىٰ امتلاك كل شيء موصول بالقوة ، وكان الهدف قديماً وحديثاً أن يمتلك المقاتل قوة تمكنه من عدوه ولا تمكن عدوه منه ، وفي عهد رسول الله ﷺ كان مدىٰ رمي السهام هو رمز القوة ، فأول ما تبدأ الحرب يضربون العدو بالنبال ، فإذا زحف العدو وتقدّم يستخدمون له الرماح ، فإذا تم الالتحام كان ذلك بالسيوف ، وكانت أحسن قوة في الحرب هي السهام التي ترمي بها خصمك فتناله وهو بعيد عنك ، ولا يستطيع أن ينالك أو يقترب منك ، ولذلك عندما فسّر الرسول ﷺ القوة قال فيما يرويه عنه عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله وهو علىٰ المنبر يقول : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ ثم قال : « ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » رواه الإمام مسلم .

لأنك بالرمي تتمكن من عدوك ولا يتمكن هو منك ، فإذا تفوّقت في الرمي كنت أنت المنتصر .

ولكن كيف ينطبق ذلك علىٰ الحرب في العصر الحديث بعد أن تطورت الأسلحة الفتاكة؟

لقد صارت المدفعية لفترة من الزمن هي السلاح ، لأنها المحقق للنصر لبُعد مداها ، ثم جاءت الطائرات لتصبح هي السلاح الأقوىٰ ، لأنها تستطيع أن تقطع مسافة طويلة وتلقي بقنابلها وتعود ، وصارت قوة

الطيران هي التي تحدد المنتصر في الحرب ، لأنها تُلحق بالعدو خسائر جسيمة دون أن يستطيع هو أن يردّ عليها ما دام غير متفوّق في الطيران ، ثم بعد ذلك جاءت الصواريخ والصواريخ عابرة للقارات ، إلىٰ آخر الأسلحة المتطورة التي تتسابق علىٰ اختراعها الدول الآن ، وكلها أسلحة بعيدة المدىٰ ، والهدف أن تنال كل دولة أرض عدوها ولا يستطيع هو أن ينال أرضها .

ويضيف الحق تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ .

ورباط الخيل هو القوة التي تحتل الأرض ، فمهما بلغت قدرتك في الرمي فأنت لا تستطيع أن تستولي علىٰ أرض عدوك ، ولكنّ راكبي الخيل كانوا يدخلون المعركة في الماضي بعد الرمي ليحتلوا الأرض ، وهذه عملية تقوم بها المدرعات الآن ، فالمعركة تبدأ أولاً بالصواريخ والطائرات حتىٰ إذا حطَّمتَ قوة عدوك انطلقت المدرعات لتحتل الأرض ، فالطائرات والصواريخ تهلك العدو وتحطمه ولكنها لا تأخذ الأرض ، ولكن الذي يمكننا من الأرض والاستيلاء عليها هو : رباط الخيل ، أو المدرعات ، ورباط الخيل هو عقدة للحرب ، أي أن الخيل تُعد وتُعلف وتدرب وتكون مستعدة للحرب في أيِّ لحظة ، تماماً كما تأتي للمدرعات وتعدها إعداداً جيداً بالذخيرة ، وتصلح أجهزتها وتتدرب عليها لتكون مستعداً للقتال في أي لحظة ، ولذلك يقول رسول الله ﷺ فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه : « من خير معاش الناس لهم رجل يمسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير علىٰ متنه ، كلما سمع هيعةً أو فزعةً طار علىٰ متنه يبتغي القتل أو الموت مظانّه ، ورجل في غنيمة في شعفة من هذه الشِّعاف[1] وبطن واد من هذه الأودية ، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة

---

(١) قال ابن الأثير : شعفة كل شيء أعلاه ، وجمعها شعافٌ ، يريد به رأس جبل من =

ويعبد ربه حتىٰ يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا في خير »[1] .

أي أنه لا ينتظر بل ينطلق لأي صيحة ، ومن الإعجاز في الأداء القرآني أنه أعطانا ترتيباً للحرب ، فالحرب أولاً تبدأ بهجوم يحطّم قوىٰ العدو بالرمي ، سواء كان بالصواريخ أم بالطائرات أم بغيرهما ، ثم بعد ذلك يحدث الهجوم البري ، ولا يحدث العكس أبداً ، ورتّب الحق سبحانه وتعالىٰ وسائل استخدام القوة أثناء القتال ، فهي أولاً الرمي ، وبه نهلك الخصم ثم نستولي علىٰ المكان ، وكان ذلك يتم برباط الخيل الذي تقوم مقامه المدرعات الآن ، ونجد أن الحق سبحانه وتعالىٰ جاء في القرآن الكريم بالأداء الذي يعلم ما تأتي به الأيام من اختراعات الخلق ، ونجد في زماننا هذا كل قوة للسيارة أو المدرعة أو الدبابة إنما تقاس منسوبة إلىٰ الخيل ، فيقال قوة خمسة أحصنة أو خمسمئة حصان ، ويقول المولىٰ سبحانه وتعالىٰ :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ ، فالقصد ـ إذاً ـ من إعداد هذه القوة هو إرهاب العدو حتىٰ لا يطمع فيكم ؛ لأن مجرد الإعداد للقوة ، هو أمر يسبّب رهباً للعدو ، ولهذا تقام العروض العسكرية ليرىٰ الخصم مدىٰ قوة الدولة ، وحين تبيّن لخصمك القوة التي تملكها لا يجترىء عليك ، ويتحقق بهذا ما نسميه بلغة العصر (التوازن السلمي) ، والذي يحفظ العالم الآن بعد سقوط الاتحاد السوفياتي هو التوازن السلمي بين مجموعات من الدول ، بالإضافة إلىٰ العامل الاقتصادي المكلف للحرب ، فالقوة الآن لا تقتصر علىٰ السلاح فقط ، ولكن تعتمد القوة علىٰ عناصر كثيرة منها الاقتصاد

= الجبال : [النهاية في غريب الحديث والأثر : ٢/ ٤٨١] .

(١) رواه مسلم والنسائي : [الترغيب والترهيب للمنذري : ٢/ ٢٤٧] .

والإعلام وغيرهما ، وصار الخوف من رد الفعل أحد الأسباب القوية المانعة للحرب ، وكل دولة تخشىٰ مما تخفيه أو تظهره الدولة الأخرىٰ .

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ ولا تظنوا أن من يواجهونكم هم أعداء الله فقط وقد سلطكم سبحانه عليهم ، لا بل عليكم أن تعرفوا أن أعداء الله هم أعداؤكم أيضاً ، لأنهم يفسدون الحياة علىٰ المؤمنين ، وعدو الله دائماً يحاول أن ينال من المؤمنين ، وأن ينكل بهم ، وأن يجبرهم إن استطاع علىٰ الكفر وأن يغريهم علىٰ ذلك ، فالحق سبحانه وتعالىٰ لا يغضب ؛ لأنهم لم يؤمنوا به ، بل لأنهم لا يطبقون المنهج الذي يسعد الإنسان علىٰ الأرض ، فسبحانه وتعالىٰ لا يكرههم ، ولكن يعاقبهم بسبب الإفساد في الأرض وبغيهم وطغيانهم .

﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ .

وهذه لفتة من الحق سبحانه وتعالىٰ إلىٰ أن أعداء المسلمين ليسوا هم فقط الذين ظهروا أثناء الرسالة من كفار قريش واليهود والمنافقين وغيرهم ، ولكن هناك خلقاً كثيراً سيأتون بعد ذلك لا تعلمونهم أنتم الآن ، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ يعلمهم ، كما يلفتنا سبحانه إلىٰ أن أعداء المسلمين ليسوا هم الذين يظهرون في ميدان القتال يحاربون دين الله ويحاربون المسلمين ، وقد ظهر معنىٰ هذه الآية الكريمة ، ولا يزال يظهر للمسلمين ، فظهرت عداوة الفرس والروم وحربهم ضد المسلمين ، وظهرت عداوة الصليبيين وغيرهم ، ومع الزمن سوف يظهر من يعلمهم الله ولا نعلمهم نحن ، وقد جاءت أحداث الحياة لتؤكد دقة تعبير القرآن الكريم .

ثم يتناول الحق سبحانه وتعالىٰ هواجس النفس البشرية ، وهي تنصت

لهذه الآيات من الإعداد العسكري ، فالذي يخطر علىٰ البال أولاً أن مثل هذا الإعداد يتطلب مالاً ، ويتطلب جهداً ، ويتطلب زمناً فوق الزمن لقضاء المصالح والحوائج .

فإياكم أن تنكصوا عن الاستعداد ؛ لأن كل ما تنفقونه في سبيل الله محسوب عند الله ، وإياكم أن تقولوا : إن الإعداد لقوة المجتمع يحتاج مالاً ويقتّر علىٰ الأبناء ، لأن الله يرزقكم .

ويقول سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ .

أي أن ما تنفقونه مما يقال له شيء سواء أكان قليلاً أم كثيراً يرد إليكم ، ولقد جاء التعبير بـ﴿ مِّن شَيْءٍ ﴾ في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنفال : ٤١] أي مما يقال له شيء ، ولو جاءت الآية : غنمتم شيئاً ، لما شملت الأشياء البسيطة ، ولكن قوله تعالىٰ : ﴿ مِّن شَيْءٍ ﴾ أي من بداية ما يقال له شيء ، حتىٰ قالوا : إن الخيط الذي يوجد عند العدو لا بد أن يذهب للغنائم .

وقوله تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يعني أي شيء تنفقونه في سبيل الله تعالىٰ مدخر لكم ما دمتم أنفقتموه وليس في بالكم إلا الله عز وجل ، أما الإنفاق الذي ظاهره لله وحقيقته للشهرة أو للحصول علىٰ الثناء أو للتفاخر أو لقضاء المصالح ، فكل ذلك اللون من الإنفاق خارج عن الإنفاق في سبيل الله ، لكن الإنفاق في سبيل الله سيرده الله لكم مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ .

أي أن ما تنفقونه في سبيل الله لا ينقص مما معكم شيئاً[1] .

---

(١) تفسير الشعراوي : ٨/ ٤٧٧٦ـ٤٧٨١ .

إذاً : الجهاد المالي فرض كما هو الجهاد بالنفس ، بل وفي كثير من الأحيان يكون مقدّماً علىٰ الثاني ، وحسب تعبير الدكتور وهبة الزحيلي :

الجهاد بالمال يعتبر بمثابة المقدمة الضرورية التي لا بد منها لخوض غمار أي حرب ، فبالمال يُشترى السلاح أو يصنّع ، وبالمال يعلَّم الجنود والضباط فنون القتال ويدربون ، وبالمال سيتحقق الظفر والنصر العسكري علىٰ الأعداء ، فلولا المال لم تستطع الأمة الصمود في مواجهة المخاطر الحربية ، والصبر إلىٰ نهاية المعارك .

وقد أجاب (تشرشل) عقب الحرب العالمية الثانية عن السبب الجوهري في كسب النصر قائلاً : المال ، ثم المال ، ثم المال .

وفي صدر الإسلام حينما كان التطوع للجهاد هو أساس المشاركة في الجيش الإسلامي ، كان يتعذّر الأمر عند فقد المال أو السلاح ، ويعدّ فقد المال عذراً مشروعاً في التخلف عن القتال ، قال الله تعالىٰ مبيناً الأعذار المقبولة في ترك الجهاد : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة : ٩١ـ٩٢] .

وفي عصرنا الحاضر حيث تعتمد الحروب علىٰ الجيوش النظامية تشتدّ الحاجة وتعظم إلىٰ المال الذي يصنع به السلاح أو يشترىٰ ، وتزوّد به الجيوش التي تحتاج إلىٰ المؤمن والذخائر والعتاد ، وأصبحت نفقات الجيوش النظامية تستنفد في بعض البلاد المعرضة للأخطار الحربية العدوانية حوالي (٧٠ـ٧٥٪) من ميزانية الدولة ، وقت السلم ، ومع ذلك تكون الدولة وقت الحرب بحاجة أشد إلىٰ الدعم المادي الهائل

لتزويد الجيوش بكثير من الحوائج الحربية والاستهلاكية والأمور الطارئة وإصلاح الأسلحة والإمداد الحربي بالسلاح المستهلك أو النافد .

ولقد عدّ القرآن الكريم التقصير في الإنفاق في سبيل الله سبباً للوقوع في التهلكة ، وكان ذلك سبب نزول الآية الشريفة : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

وحث القرآن الكريم علىٰ الإنفاق في سبيل الله ، لسدّ الحاجة الطارئة التي تتطلبها مقتضيات الجهاد ، فقال الله تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

ومن بدهي القول : إن الجهاد بالنفس والجهاد باللسان أو بالبيان والحجة والبرهان متوقف علىٰ الجهاد بالمال ، وكل ما كان وسيلة إلىٰ الواجب فهو واجب ، لذا أجاز الفقهاء من قبيل الاستحسان أو المصلحة المرسلة فرض ضريبة خراجية علىٰ الأغنياء إذا خلا بيت المال ، واحتاج الإمام إلىٰ تزويد المقاتلة بالسلاح ، وسدّ حاجة الجند العامل في المعارك .

وبه يتبيّن أن النصر في الحروب منوط بأمور أساسية هي : العلم ، والخبرة ، والمال ، والسلاح ؛ لأن التقنية الحديثة أضافت تعقيدات كثيرة ودقيقة جداً في وسائل الحرب المختلفة البرية والبحرية والجوية .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ۖ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

وكلمة ﴿قوة﴾ نكرة ، تشمل كل أنواع القوىٰ[1] .

---

(١) الإسلام دين الجهاد لا العدوان : ٣٩ـ٤١ .

ومن الأدلة الواضحة علىٰ أن كل فرد في عهد الرعيل الأول كان يجهّز نفسه للقتال ، وذلك إذا كان قادراً مستطيعاً ، وإلا قدّمت له الدولة ذلك : عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن فتًى من (أسلم) قال : يا رسول الله! إني أريد الغزو ، وليس معي ما أتجهّزُ ، قال : « ائت فلاناً ، فإنه قد كان تجهّز فمرض » ، فأتاه ، فقال : إن رسول الله ﷺ يُقرئك السلام ، ويقول : أعطني الذي تجهّزت به . قال : يا فلانة! أعطيه الذي تجهّزتُ به ، ولا تحبسي عنه شيئاً ، فو الله! لا تحبسي منه شيئاً فيبارك له فيه[1] .

ورحم الله الإمام ابن تيمية عندما بيّن وجوب الجهاد بالمال ، وذلك بقوله :

(. . . ومن عجز عن الجهاد ببدنه ، وقدر علىٰ الجهاد بماله وجب عليه الجهاد بماله ، وهو نصّ (أحمد) في رواية أبي الحكم ، وهو الذي قطع به القاضي في أحكام القرآن ، في سورة براءة عند قوله تعالىٰ : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [التوبة : ٤١] فيجب على الموسرين النفقة في سبيل الله ، وعلىٰ هذا ، فيجب علىٰ النساء الجهاد في أموالهنّ إن كان فيها فضلٌ وكذلك في أموال الصغار ، إذا احتيج إليها كما تجب النفقات والزكاة ، وينبغي أن يكون محل الروايتين في واجب الكفاية ، فأما إذا دهم العدو فلا يبقىٰ للخلاف وجه ، فإن دفع ضررهم عن الدين ، والنفس ، والحرمة واجب إجماعاً)[2] .

وعلىٰ هذا المنوال سار تلميذه الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى ، وذلك عند حديثه عن فقه غزوة تبوك :

---

(١) صحيح مسلم : رقمه (١٨٩٤) .

(٢) فتاوىٰ ابن تيمية : ٤/٦٠٧ .

(. . ومن فقه هذه الغزوة وجوب الجهاد بالمال ، كما يجب بالنفس ، وهذا إحدىٰ الروايتين عن (أحمد) ، وهي الصواب الذي لا ريب فيه ، فإن الأمر بالجهاد بالمال شقيق الأمر بالجهاد بالنفس في القرآن ، وقرينُه ، بل جاء مقدماً علىٰ الجهاد بالنفس في كل موضع إلا موضعاً واحداً ، وهذا يدلّ علىٰ أن الجهاد به أهم ، وآكدُ من الجهاد بالنفس ، ولا ريب أنه أحد الجهادين ، كما قال النبي ﷺ : « من جهزّ غازياً فقد غزا »[1] فيجب علىٰ القادر عليه ، كما يجب علىٰ القادر بالبدن ، ولا يتم الجهاد بالبدن إلا ببذله ، ولا يُنتصر إلا بالعَدد ، والعُدد ، فإن لم يقدر أن يُكثّر العدو وجب عليه أن يمدّ بالمال والعُدّة ، وإذا وجب الحج بالمال ـ علىٰ العاجز بالبدن ـ فوجوب الجهاد بالمال أولىٰ وأحرىٰ)[2] .

وهكذا ، يأخذ الجهاد المالي حكم الجهاد بالنفس ، بل يسبقه في كثير من الأحيان ، كيف لا والله يقول : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

(. . . روي أن هذه الآية نزلت في شأن (عثمان ، وعبد الرحمن بن عوف) رضي الله عنهما ، وذلك أن رسول الله ﷺ لما حثّ الناس علىٰ الصدقة حين أراد الخروج إلىٰ غزوة تبوك ، جاءه عبد الرحمن بأربعة آلاف ، فقال : يا رسول الله ، كانت لي ثمانية آلاف ، فأمسكت لنفسي ولعيالي أربعة آلاف ، وأربعة آلافٍ أقرضتها لربي .

فقال الرسول : « بارك الله لك فيما أمسكت ، وفيما أعطيت » .

---

(١) صحيح البخاري : رقمه (٢٨٤٣) ، صحيح مسلم : رقمه (١٨٩٥) .

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد : ٣/ ٥٥٨ .

وقال عثمان : يا رسول الله! عليّ جهاز من لا جهاز له ، فنزلت هذه الآية فيهما ، . . . واقتضت هذه الآية أن نفقة الجهاد حسنتها بسبعمئة ضعف ، واختلف العلماء في معنىٰ قوله : ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ . . . ورجّح الإمام القرطبي الرأي القائل : إنه إعلامٌ بأن الله تعالىٰ يضاعف لمن يشاء أكثر من سبعمئة ضعف)[1] .

* * *

(١) للتوسع يراجع : الجامع لأحكام القرآن : ٣/ ٣٠٣ـ٣٠٥ .